أجل، موافق

ولج باب شركة المحروقات في منتصف النهار بعد نوم عميق استغرق عشرين ساعة وتسع دقائق هجرية. سلّم على البواب باستعلاء وأخبره بأنّ له موعدا مع المدير العام لغرض لا يعني أحدا في البرية، لا البواب ولا النواب ولا الكاتبات ولا الذباب، وكان يحمل في يده ملفّا ضخما طواه أربع طيات ووضعه تحت إبطه بانتظار أن يستقبله استقبالا بهيجا يليق بسعادته.

لم يعثر على البساط الأحمر كما تخيّل قبل وصوله المبكر، ولم ينتظره أحد في الباب الخارجي، لا الخدم ولا الحشم، لذلك اغتاظ وجحظت أحاسيسه في الرأس الذي كانت تقطنه أفكار عارمة وشعيرات قليلة صبغها بالأخضر الفاتح ليبدوّ مهمّا، وكان يقول في سرّه: من يحسب نفسه؟ أوصاه والدي بأن يشملني بعنايته لأني ضروري للشركة العمومية. إنها ملك للدولة، دولة والدي، وليست دولته. لي بذلة رياضية وحذاء إيطالي وأقراط ذهبية وشعر أملس ناعم أصقله كلّ نصف ساعة، ووالدي شخصية في الوزارة، نعم. إنه سيّده ووليّ نعمته، ولو شاء لأقاله من منصبه وأصبح بطالا كبيرا، متسكعا كالآخرين. لا شيء، مجرّد خردة من الخردوات التي تملأ هذه المدينة.

– أهلا وسهلا بالأمير الصغير الذي اشتقنا إلى رؤيته، ما شاء الله، تصورتك بشكل آخر. قال له المسؤول الكبير مرحّبا

بسعادته، صمّ أكمل مطأطئ الرأس: لقد حدّثني عنك أبوك البارحة ليلا وأخبرني في الهاتف بأنك قادم فانتظرتك طويلا، وصلت قبل الثامنة، ولولاك لما جئت إلى هنا، لي اجتماع في العاصمة. اجتماع تاريخي مع وفد أجنبي. تفضل. اجلس حيث شئت. المكتب مكتبك والشركة شركتك والبلد بلدك. نحن في خدمتك، عمّالا وإطارات سامية. وأضاف في سره: حيث شاء الحيّ وجه رأس الميت، والده في الأعلى، وما شاء فعل. اللعنة على هذه الدنيا.

جلس ابن الشخصية المهمة جدا على الأريكة المواجهة للمكتب الفاخر، وضع رجلا على رجل، أشعل سيجارة وأخرج الملف المكوّن من عدة شهادات قال إنه لا يملك سواها إلى حدّ الساعة، لكنها كافية: شهادة الميلاد، شهادة السوابق العدلية، شهادة الجنسية، شهادة السنة الثالثة ابتدائي، وصورتين طبق الأصل من رخصة القيادة وبطاقة التعريف الوطنية، ومن الجيب الخلفي أخرج جواز السفر وناوله إياه مبتهجا. لم يكن له وقت كاف لاستخراج نسخة ممضاة في البلدية المزدحمة بالخلائق التي تقضي حياتها في الطوابير.

– ملف مهمّ جدا. علّق المسؤول الكبير وهو يلعب بقلم مذهب كان يمرره بين أصابعه، ثم أردف بعد أن مسح العرق المنحدر من الجبهة الواسعة: أيها الأمير الصغير، أنت أهل لهذا المنصب الذي بقيّ ينتظرك شهورا ولم تأت لتشريفه وتشريفنا، لتشريف الشركة وطاقمها. جاءتني عدة طلبات ورفضتها، لماذا تأخرت إلى اليوم يا أستاذنا؟ أنت شخص رائع، ولك كفاءة عالية تؤهلك للتسيير. هذا المنصب يليق بك.

سوّى ابن الشخصية قبعته البيضاء التي تحمل العلم الأمريكي، وضع نظاراته الشمسية على الرأس، وأجابه باقتضاب وهو يتراكم على الأريكة الجلدية التي شدّت عينيه: كنت منشغلا بقضايا أهمّ من هذا العمل. لا وقت لي لآتي إلى هنا، ولولا إلحاح الشيخ لما جئت أبدا. لم أكن بحاجة إلى عمل في الإدارة المحلية. هذا أمر لا يعنيني، أنا أكره الإدارات والإداريين، إنهم يشبهون الطاعون. يلزمني منصب مستشار. أتجول في العاصمة وأعطي التوجيهات بالهاتف النقال. لا أحب البقاء ملتصقا بالكرسي كالأبله، مثل هؤلاء. هذه مهنة تليق بالمتقاعدين والمعاقين حركيا. هل فهمتني؟

استمع إليه المدير العام باهتمام فاخر وعلق: أجل. لا وقت لك، من أين يأتيك الوقت في هذا الوقت؟ ما رأيك في منصب رئيس مكتب تشغيل الإطارات والجامعيين العاطلين عن العمل؟ أظن أنه يناسب حضرتك، هناك حاملو شهادات عليا يتسكعون بحثا عن قوت يومهم، أمّا مهمتك أنت، كحامل شهادات كثيرة من مختلف البلديات، فتكمن في دراسة طلباتهم، طلبات التشغيل في المؤسسة، مؤسستك. أقصد الموافقة على توظيفهم أو عدم الموافقة، ستجد مهندسين وبيطريين وأساتذة ونفسانيين ومتخصصين في علم الاجتماع، وغيرهم من الذين ينتظرون توظيفهم في شركة المحروقات التي يشرف عليها والدك المبجل من ثلاثين سنة.

احمرّ وجه الولد الذي بدا منزعجا من المسؤول الكبير. كان ينتظر أن يعيّنه نائبا له، أو مديرا للمالية والعلاقات الخارجية ليخرج من البلد الخارج عن الوقت والقانون. ربّما لم تكن له مؤهلات وشهادات كافية، أو لأنه لا يتقن لغة واحدة للتواصل مع

الشخصيات المهمة. لكنّ المنصب لا يناسب هيئته ولباسه والمراهم وشعيرات رأسه الصاعدة إلى السماء كهيئة هدهد.

- ألا يوجد منصب آخر يلائمني؟ أقصد منصبا أرقى، وظيفة مشرفة لا تسيء إلى سمعتي في الحارة؟ أنت تعرف أني ابن شخصية كبيرة في الشركة، سيضحك عليّ كلّ الجيران، سيقولون إن ابن عزرائيل قنع بعمل لا يشرّف الأهل والجيران، لا يشرّف العائلة الكبيرة، سيتخذونني أضحوكة. أنا متأكد. أعرف ردّ فعل الشباب.

نظر إليه المسؤول الكبير وتجمّد على كرسيّه الفاخر بحثا عن حلّ عاجل ينقذ به نفسه، ستهدده الشخصية التي تتحكم في شركة المحروقات وتطرده من العمل ومن الحياة. ستقدم تقارير عنه لأنها تعرف سيرته السيئة السمعة، ستقبض عليه من عنقه وتخنقه ككيس من النخالة، وسيعرف معنى الحبس.

أجل، منذ وقت طويل وهو في باب السجن ينتظر دوره، لن تنفعه بذلته وربطة العنق والحذاء الملمع، لا مجال للفهم عندما تأتي القرارات من فوق. نفّذ واسكت أيها العبد. هذه هي الدائرة الجهنمية الخالدة، إمّا آكل أو مأكول، شبكة معقدة عليك أن تحسب لها جيدا، أن تتوخى الحيطة مهما كنت، أن تقيس بدقة متناهية وزن كلمتك وخطوتك القادمة، نحو الجنة أو نحو الجحيم. الدائرة نافعة أحيانا، في سياقات، لكنها تستدعي الانحناء جيدا، تستدعي التنازل الدائم عن ذاتك، تستدعي الكذب، الرياء، مسح أحذية البغل والخنزير، وهكذا، وعليك أن تختار بين أمرين: أن تكون نظيفا فتطرد، أو أن تتسخ فترتقي، كما فعلوا. الوسخ هو الذي يجعلك مهمّا.

- طيب، قال له بصوت خفيض، هذا منصب مؤقت بانتظار أن أجد لك ما يناسبك في هذه الشركة العمومية، ستعمل ساعة واحدة في اليوم، أو نصف ساعة، أو عشر دقائق، أو أقلّ، سأتكفل بالأمر، أعرف ما تفكر فيه، أنت لم تبلغ العشرين، وبعد شهر أو شهرين ستكون لك وظيفة مهمة بمناسبة عيد ميلادك السادس عشر. تأكد من هذا. لا تقلق أبدا. سأتصرف، لكنّ، قبل ذلك، ومن أجل تسوية القضايا الإدارية والعمل في شفافية، أرجو منك أن تقدم لي طلب توظيف لأضمّه إلى ملفك المهمّ، الشهادات كافية وهيئتك تليق بنا جميعا، مستوى السنة الثالثة ابتدائي مشرّف جدا. بقيّ شيء واحد: لو أنك صبغت شعرك بالأخضر القاني لكان ملائما أكثر لشكلك ولمحيط الشركة التي غرست مؤخرا ثلاث شجيرات كلفت ميزانية كبيرة للدولة، دولتنا. مسألة ذوق على أيّ حال. أنت حرّ. هل أنت موافق على الفكرة؟

أجل، موافق. ردّ عليه ابن الشخصية مقهقها وهو يترك الأريكة الوثيرة. كيف لا أوافق؟ أخذ ورقة وقلما من مكتب المسؤول الكبير ثم انزوى جانبا، وبعد دقائق قدم له طلب استقالة كتب بالعامية، وطالب بتعويضات عن الوقت الذي ضيّعه في شركة المحروقات، وعن الأضرار النفسية التي تسببت فيها الخيبة العظيمة التي لا قبل لها ولا آخر، وقبل أن يخرج من الشركة أخرج النقال وهاتف والده. كان غاضبا ومحبطا.

مستغانم، الجزائر الشقيقة، 2016